تاريخ تطور الفكر العربي

بالترجمة والنقل عن الثقافة اليونانية

(٢)

مرّ بنا من قبل ذكر « يوسوما » الذي قاد الهجرة النسطورية الى بلاد فارس وافتتح مدرسة « نصيبين » . كان لذلك الرجل معلم يقال لهُ « إيباس » هو القوة المحركة والعقل المفكر في مدرسة « الرها » في اواخر ايامها . ويظهر من المقارنة التاريخية انهُ اول من ترجم « إيساغوجي » مختصر « فرفوريس » في المنطق الى السريانية . ويعتبر هذا الكتاب مدخلاً لمنطق ارسطوطاليس . وذلك يدل على ان المنطق كان يعتبر العلم الرئيسي الذي عني بتدريسهِ النساطرة والظن الغالب انهُ لم يكن ليقلّ اعتبارهُ في نظر اليعاقبة

وفي ذلك الوقت ظهر « بروبوس » Probus فعلق على كتاب الايساغوجي كما علق على بعض كتب ارسطوطاليس ومنها « إرمانوطيقا » Hermeneutica اي العبارة او كما يقولون « باري ارمياس » وسوفسطيقا Sophistica وأناليطيقا الاولى Analytica priora أي القياس فكانت هذه التعليقات بمثابة متون يرجع اليها طلاب المنطق في بلاد السريان

ومن الوصف الذي خصت بهِ التراجم السريانية عن ارسطوطاليس تعرف ان العرب لم يقتصروا على النقل عنهم الى العربية بل اتبعوا نفس الطريقة وذات الاسلوب الذي تبعهُ المترجمون الى السريانية لا في تراجمهم فقط بل في مؤلفاتهم ايضاً

كان من عادة المعلقين على ارسطوطاليس قبل العصر العربي ان يأخذوا مقطعاً قصيراً من متن ارسطوطاليس المترجم الى السريانية وقد لا يزيد عن بضع كلمات و يعلقون عليهِ باطناب وقد يذهب التعليق الى بضع صفحات طويلة وقد يقتصر على اشارات قصيرة حسب ما يقتضي الحال من حاجة الى الاطناب او الايجاز كما لو كان معلم في مدرسة يقرأ فقرة ويلحق باخرى بعد ان يفرغ من شرح الاولى . ولو نظرت في كتاب المواقف لعضد الدين او نظرت في تفسير القرآن لوجدت ان عضد الدين قد اتبع هذه الطريقة نفسها في كتابة مؤلفهِ الفلسفي كما اتبعها المفسرون في تفسير كتاب الله

اما التعليق على «الايساغوجي» فقد طبع بعناية الاستاذ «بومستراك» Baumstarck في كتاب (Aristotles bei den Syrern) في ليبزج سنة ١٩٠٠ كما طبع الاستاذ الكبير «هوناكر» Hoonacker «الاناليطيقا الاولى» في المجلة الاسيوية Journal Asiatique في عددي يوليو واغسطس سنة ١٩٠٠

وكان سرجيوس (٥٣٦ م) اعظم مؤلفي اليعاقبة وكان مترجماً كبيراً كما كان مؤلفاً في الفلسفة والطب والهيئة (الفلك) . وكان اشتغالهُ بالطب عملهُ الرئيسي ولكنهُ ترجم الى السريانية الجزء الاعظم من مؤلفات جالينوس. امضى زماناً في الاسكندرية حيث اتقن اللغة السريانية ودرس الكيمياء والطب في مدرستها الطبية لدى اول عهدها بتدريس ذلك العلم . ولا تزال بعض ترجماتهِ عن جالينوس محفوظة حتى اليوم في المتحف البريطاني ضمن المجموعة ١٤٦٦١ والمجموعة ١٧١٥٦ . ونشر العلامة المستشرق «ساخاو» Sachau نتفاً مما هو محفوظ في المجموعة الثانية في كتاب سماهُ Inedita Syriaca في «فينا» سنة ١٨٧٠ . ونشر «ساخاو» فضلاً عن ذلك ترجمة الايساغوجي وفي المتحف البريطاني نسخة خطية من ذلك الكتاب ، كما نشر «المائدة» لفرفوريوس وقاطيغوریاس اي المقولات لارسطوطاليس ومقالة في الروح وهي ليست مقالة ارسطوطاليس المعروفة تحت عنوان «ده أنيما» de Anima وكتب مقالة في المنطق في سبعة مجلدات ومنها جزء في المقولات محفوظ في المتحف البريطاني ضمن المجموعة ١٤٦٦٠ ومقالة اخرى ضمن ذلك الكتاب في تعليل الكون حسب مذهب ارسطوطاليس وعدداً من المقالات القصيرة تتناول مختلف الموضوعات . أما في علم الفلك فقد ترك مقالة في تأثير القمر بناها على مؤلفات جالينوس ونشرها العلامة «ساخاو» المتقدم ذكره

وقد انتشرت مؤلفات «سرجيوس» بين النساطرة واليعاقبة على السواء. وكان الكل يحسبونهُ مرجعاً من المراجع العليا في الطب والفلسفة وثقة من ثقاتهما . ويقال انهُ اسس مدرسة سريانية في الطب اصبحت فيما بعد النبع المتبقى مما استقى منهُ العرب. على ان الراجح انهُ لم يؤسسها بل كان لهُ اثر كبير في تأسيسها وقيامها

وفي القرن ذاته — اي القرن السادس الميلادي — عاش «اخودمه» Ahudemmeh الذي اصبح اسقفاً في تغريط Tagrit سنة ٥٥٩ م .فادخل تعليقات «يوحنا فيلوبونس» على ان تكون الكتاب المدرسي بين اليعاقبة الذين يتكلمون السريانية . ويقول بعض المؤلفين انهُ الف مقالات في تعريفات المنطق وفي حرية الارادة وفي الروح وفي الانسان

باعتباره عالماً صغيراً Microcosm ومقالات اخرى في تركيب الانسان على انهُ مكون من جسد وروح . وهذه المقالة محفوظة في المتحف البريطاني ضمن المجموعة ١٤٦٢٠

واذا صح ان « اخودما » قد كتب في الانسان باعتباره عالماً صغيراً حق لنا أن نكرر المثل القائل « لا جديد تحت الشمس » . فان الانسان أو العالم الصغير Microcosm قد سد التفكير فيهِ فراغاً كبيراً في عقل « هردر » Herder الفيلسوف الالماني في القرن التاسع عشر . كذلك انتشرت فكرات فلسفية بل مذاهب حصرت همها في بحث الانسان وعلاقتهِ بهذا الكون الفسيح طبيعياً وأدبياً بل تعدت ذلك الى النظر الغيبي

***

ومن مؤلفي النساطرة الذين عاشوا خلال القرن السادس من الميلاد « بولص الفارسي » وقد كتب مقالة في المنطق اهداها الى الملك « كسرى ابو شروان » وقد نشرها مسيو « لاند » M. Land في كتابهِ المسمى Analecta Syriaca

كان هذا فجر الفتح العربي . ففي سنة ٦٣٨ من الميلاد فتح العرب سوريا وتبعها فتح ما بين النهرين والعراق في سنة واحدة وبعد اربع سنوات فتحوا بلاد فارس . وسنة ٦٦١ من الميلاد استقر الملك لبني امية في دمشق . ولكن هذا الفتح لم يؤثر في حياة الجماعات المسيحية حيث كانت طوائفهم تعيش تحت الحكم العربي متمتعة بكل حريتها السياسية والدينية ولم يتعرض حكامهم العرب لشؤونهم الذاتية وكل ما كان يطلب منهم للحكومة انما هو الخضوع لقوانينها الزمنية ودفع الجزية . وحوالى سنة ٦٥٠ م كتب « حنا نيشو » Hennanieshu مقالة في المنطق وعلق على « يوحنا فيلبونس » . ولم يكن للمعاقبة مدارس ظاهرة الاثر كما كان للنساطرة ولكنهم استعاضوا عن ذلك بدير لهم في « قنسرين » على ضفة الفرات اليسرى كان مقراً لمدرس منتجات العقل اليوناني

وكان اعظم من ظهر فيهم هنالك « ساويروس » Severus Sebokt الذي عاش قبيل الغزو العربي والف تعليقاً على « لارمانوطيقا » Hermeneutica لارسطوطاليس لم يبق منهُ الاَّ اجزاء صغيرة ومقالة اخرى في القياس تعليقاً على « أناليطيقا الاولى » Analytica Priora وشرح بعض المعضلات التي صادفها في « الريطوريقا » اي الخطابة لارسطو . اما في علم الفلك فقد كتب مقالة في « صور منطقة البروج » واخرى في « الاسطرلاب » اما الاولى في المتحف البريطاني محفوظة ضمن المجموعة ١٤٥٣٨ وطبعها المستشرق « ساخاو » واما الثانية في برلين ضمن مخلفات « ساخاو » وطبعها العلامة « تاو »

الآكة في الجزيرة الاسيوية سنة ١٨٩٩ وكان «اثناسيوس بلد» Athanasius of Balad اسقفاً يعقوبياً سنة ٦٨٤ م . والمعروف عنهُ انهُ ترجم « الإيساغوجي » الى السريانية ولا تزال هذه الترجمة محفوظة الى اليوم في الفاتيكان . وهو من تلاميذ ساويروس سيبوقط كذلك كان يعقوب الرهاوي تلميذاً لسيبوقط . وصار اسقفاً في « الرها » عام ٦٨٤ وترك منصبهُ هذا سنة ٦٨٨ لانهُ عجز عن ادخال الاصلاحات في الاديرة التابعة لابرشيتهِ . واعتزل في دير مار يعقوب في «قيسون» بين حلب والرها ثم تركهُ وكتب قبل موتهِ مقالاً طبياً في المصطلحات المستعملة في الفلسفة ولا يزال محفوظاً في المتحف البريطاني في المجموعة ١٢١٥٤

ومن تلامذة اثناسيوس المذكور آنفاً جورجيس الذي سيم اسقفاً للعرب سنة ٦٨٦ م . وقد ترجم كل كتاب ارسطوطاليس في المنطق « الاورغانون » ولا يزال محفوظاً من ترجمتهِ حتى اليوم في المتحف البريطاني في المجموعة ١٤٦٥٩ كتاب قاطيغورياس وإرماتوطيقا وأنااليطيقا الاولى وكل من هذه الكتب مقدم بتصدير وعليهِ تعليقات

***

إن هؤلاء الاعلام الذين عرض ذكرهم حتى الآن في سياق هذا المقال هم الذين يكوّنون تاريخ الفكر في العصور القديمة منذ اتصال السلوقية واليونانية حتى الفتح الاسلامي . وإنهذا لكافٍ لاظهار ان المتكلمين بالسريانية قد ظلوا طوال تلك الاعصر على ما كتب ارسطوطاليس في المنطق وما بعد الطبيعة عاكفين ، ولم يفتهم أن يعنوا بالطب ودرس كثير من فروع العلوم الأخر

غير انك ان بحثت في اعمال هؤلاء جميعاً لما وقعت على شيء من قوة الابتكار الحقيقي او على تعمق في الدرس العلمي او التأمل الفلسفي الصحيح . لان جماع ما في تلك الحركة لم يكن الاّ نقل المتون الموجودة بين أيديهم مع اصدار تراجم جديدة فيها او تعليقات عليها او مقالات تفسيرية تحشى بهاء على ان هذه الاشياء قد سدّت فراغاً كبيراً في تاريخ الفكر الانساني ولم يحدث الفتح العربي من اثر يصد تلك البحوث العلمية دون الانبعاث في طريقها فبدو أمية لم يفكروا يوماً في التعرض لشؤون المدارس الفلسفية وكان الطلاب من السريان متمتعين باقصى حد من الحرية تحت حكم العرب

أما ما يرويهِ بعض المتعصبين من المؤرخين في مطاردة العرب لرؤساء الدين المسيحي فكلهُ فاسد من اساسهِ . فقد كان بعض رؤساء المسيحية يلجأون الى الخليفة العربي المسلم ويضجون لهُ بالشكوى من اخوانهم في الدين وكان ذلك السبب الاوحد للتعرض لشؤون

النصارى . وهو ما يسميه بعض المؤرخين تعقباً للنصرانية . واستمرّ اساقفة المسيحيين على بحثهم العلمي والفلسفي حتى سنة ٧٤٠ حين سمع ما رأيها رئيساً لاساقفة السلوقية فألف تعليقاً على منطق ارسطوطاليس

وكانت سنة ٧٤٠ م . اي سنة ١٣٣ للهجرة بدء عهد جديد في تاريخ العربية إذ اخذ ابناؤها يبدون حظاً غير قليل من الاشتراك في تلقي الفلسفة والعلوم وبدأت التراجم والتعليقات تظهر في اللغة العربية . على ان السريانية لم تفقد اهميتها فجأة بل ظلت موئلاً للعلم ومهداً للفلسفة حتى زمان ابي الفرج ابن العبري في القرن الثالث عشر الميلادي (١٢٨٦) الذي ينتهي به تاريخ الآداب السريانية

وتكونت أول مدرسة صحيحة للترجمة في العالم العربي من حنين بن اسحاق وابنه اسحاق بن حنين وابن اخته حبيش الأعسم الدمشقي مع غيرهم من المترجمين . تلك المدرسة التي اسسها في بغداد الخليفة المأمون لتنقل المتون اليونانية في الفلسفة والعلوم الاخرى الى العربية . وذلك ما سوف نعود الى الكلام فيه بعد

غير اننا لا ننسى هنا ان حنين بن اسحاق كان مسيحياً نسطورياً واشتغل زماناً بالترجمة من اليونانية الى السريانية . والمقول انهُ ترجم من السريانية الأ انهُ راجع فقط على الرواية الصحيحة إيساغوجي لفرفوريوس وإرمانوطيقا لأرسطوطاليس وجزءاً من الانالوطيقا ومقالة لارسطوطاليس في الروح المسماة « ده انيا » de Anima وجزءاً من الميتافيزيقا — ما بعد الطبيعة — وتلخيصات نيقولاوس الدمشقي وتعليقات الاسكندر الافروديسي والجزء الاعظم من مؤلفات جالينوس وديوسقوروس Dioscorus وبولس الاجانيطي وأبقراط

كذلك ترجم ابنهُ اسحاق مقالة ارسطوطاليس في الروح . ومن الغريب ان تصبح ترجمة اسحاق لهذه المقالة وتعليق الاسكندر الافروديسي عليها مرجعاً من اهم المراجع لدرس الفلسفة في عصرنا هذا ذلك لان الفكر قد اتجه الى درس علم النفس — البيكولوجيا — في الاعصر الحديثة كما انهُ اخذ يبتعد عن درس المنطق حالاً بعد حال

وفي ذلك العصر الف الطبيب يوحنا بن ماسويه (٨٥٧) مؤلفات كثيرة في الطب باللغتين السريانية والعربية . وكان كما كان حنين بن اسحاق احد الذين اتخذهم العباسيون واحلوهم محلاً رفيعاً من الاحترام والاجلال وحوّطوهم بالعناية في بغداد عاصمة ملكهم لينقلوا فلسفة اليونان الى العربية . وعاصر هؤلاء فئة من الكتّاب السريانيين كتبوا تعليقات على منطق ارسطوطاليس . وهو كما يقول العرب أبو زكريا يوحنا بن

ماسويه وكان ابوهُ صيدلياً في جندبسابور وثقّفه في بغداد جبرائيل بن بختيشوع . واشتهر في زمان المأمون والواثق الى زمان المتوكل (راجع اخبار الحكماء ص ٢٤٨)

وفي القرن الثاني عشر المسيحي علق « ديونيسيوس بارصالبي » على كتاب إيساغوجي وقاطيغوريا س و إرمانوطيقا وانالوطيقا . وفي اوائل القرن الثالث عشر كتب « يعقوب بارشاقاقو » Jacob Bar Shokako مجموعة من المحاورات تكلم في الجزء الثاني منها على مسائل كثيرة في الفلسفة والمنطق والموسيقة Physics والرياضيات وما بعد الطبيعة

وينتهي العصر السرياني في نقل الفلسفة بمارغريغوريوس بن العبري الذي تقدم ذكرهُ وهو الملقب « بابي الفرج » في القرن الثالث عشر الميلادي . وقد لخص في كتابه « إنسان العين » وهو مجموعة ملخصات في المنطق كتاب إيساغوجي لفرفوريوس ولخص عن ارسطوطاليس كتاب المقولات — قاطيغوريا س — وإرمانوطيقا أي العبارة وانالوطيقا اي القياس وطوبيقا أي الجدل والسوفسطيقا اي السفسطة، وكتب كتاباً آخر لخص فيه مقدمات للمنطق والموسيقة وما بعد الطبيعة واللاهوت . وسمي هذا الكتاب على ما نظن « عيون الحكمة ». ولهُ كتاب ثالث اذكر ان اسمه « زبدة العلوم » أو ما يقارب ذلك هو عبارة عن موسوعة جمع فيها فلسفة ارسطوطاليس واختصر ذلك الكتاب من بعد تحت عنوان آخر. وترجم عن السريانية مؤلف « ديوسقوروس » في البائط والف مقالة في الطب اجاب بها على مسائل حنين بن اسحاق ولهُ كتاب آخر في الجغرافية لا اذكر اسمه العربي

كانت الجماعات السريانية التي دانت بالمسيحية بيئة طيبة انتعشت فيها الفلسفة اليونانية والعلم اليوناني ومن ثم انتقل كلاهما الى العرب . على انهُ لم تنم بين السريان روح الابتكار والاستقلال في الرأي العلمي حتى ان الكتب التي ترجمت الى السريانية كانت قد خرجت من يد اليونان انفسهم من قبل ان تنتقل الى السريان . وكان المعتقد الثابت عندهم ان اساس العلوم الالسانية هو منطق ارسطوطاليس اما ما بقي مما درس او كتب المعلم الاول فيجب على معتقدهم ان يفسر على قواعد « الافلاطونية الجديدة » ومن علق عليها. اما في الطب والكيمياء فان يونانيي مدرسة الاسكندرية فيهما كان معتبراً ارقى ما توصل اليهِ في هذين العلمين. على ان هذا الامر لو اقتصر على ما نقل عن جالينوس وابقراط وعلى تعاليم «بولص الاجانيطي» في طب التوليد لكان خيراً للناس لولا أن امتزج بتلك العلوم قسط من الباطنية كان ذائعاً في الاسكندرية وكان قوامه علم التنجيم — الاستولوجيا — فتمازج العلم بالاساطير وشاعت فكرة ان بعض العقاقير الطبية لا تفيد فائدتها المرجوة

الاّ عند مرور نجم من النجوم السيارة وما يجري ذلك المجرى من الفكرات الخيالية التي صبغت الطب في الاسكندرية ومن بعد عند العرب بصبغة من السحر والشعوذة عاقت خطاه دون الانبعاث في سبيل التقدم والرقي ازماناً متعاقبة

ولا سبيل الى القول بان علم العرب في الطب والكيمياء كان عبارة عن تدجيل صرف كما يقول بعض الذين لم يتجشموا مؤونة البحث والتحقيق . ففي العربية مؤلفات قيمة خدمت هذين العلمين اجل الخدمات واكبرها شأناً

من هنا نعتقد أن اللاهوت والفلسفة والعلم في الاسلام لم تغرس الاّ في ارض تشبعت من قبل بالعلوم اليونانية على اختلاف ضروبها وتباين الوانها . اما السبل التي خطت فيها العلوم اليونانية الى العرب فذات خمس مفاوز :

اولاً — النساطرة الذين كانوا اول من علم المسلمين واول الذين خدموا الطب في العصور الاولى

ثانياً — اليعاقبة الذين كانوا اول من ادخل الباطنية والافلاطونية الجديدة في الجو العربي

ثالثاً — الزرادشتيون في فارس وعلى الاخص مدرسة « جنديسابور » ولو ان هذه المدرسة قد امتزجت بعنصر قوي من عناصر النسطورية

رابعاً — وثنيو « حرّان » ولو ان اثرهم في الاسلام لم يأت الاّ مؤخراً

خامساً — الحرانيون — على انهم لم يكونوا على صلة بالفلسفة الارسطوطالية وظلت مدارسهم في « صورا » Sora و « بمباديثا » Pambaditha عاكفة على درس شرائعهم التقليدية

لم يبدأ الحرانيون في درس الفلسفة الاّ في العصور المتأخرة وقد استمدوا من فلاسفة العرب . غير انهم ورثوا عن النساطرة نزعة الى علم الطب حتى ان الاطباء اليهود قد ظهروا في اوائل عمارية بغداد . غير انهم لم يبزوا النساطرة في ذلك . فمن بين الاطباء الذين يذكرهم العلامة « لكلارك » M. Leclerq في كتابه « تاريخ الطب عند العرب » Histoire de la Midicine Arabe في القرن العاشر الميلادي ٢٩ طبيباً مسيحياً وثلاثة من اليهود واربعة من وثني حران . في حين ان النسبة اختلفت في القرن الحادي عشر فكانوا ثلاثة مسيحيين وسبعة من اليهود . ومن ثم تكاثر الاطباء العرب من بعد ذلك كثرة لا يحفظ فيها النسبة بينهم وبين غيرهم